

من الأدب الفرنسي المعاصر

أندريه جيد

André Gide

بقلم على كامل

تمة

يرى أندريه جيد - ويتفق معه في ذلك مارسيل بروست والكاتب الإيطالي بيراندلو - أن الشخصية ماضية ولا وهم زائف ، وأن الانسان صنعة الظروف والاحتمالات ومهما يكن مقدار ما في هذه الآراء من الحق أو الباطل فقد كان لها الفضل الأول في تجديد القصة الأوروبية لما تضمنته من تحطيم فكرة (الأخلاق الثابتة) و (النماذج الانسانية) التي كانت أساس القصة التحليلية في الأدب الغربي لتقيم على انقاضها أسس فكرة (اللاشعور) قبل العالم (فرويد) نفسه . كما أن هذه الآراء قد أبانت الأثر العظيم للفرايز الجنسية وعدم توازن المواطن في حياة الأشخاص متأثرة في ذلك بقصص الكاتب الرومي دستوفسكي

على أن ما يمتاز به أندريه جيد من كل من مارسيل بروست وبيراندلو أنه لا يكتفى بالنظر الى الأمور نظرة العالم النقسي ، بل إنه يخرج من دراسته (بقاعدة) يرى من الواجب السير عليها في الحياة : تلك القاعدة هي وجوب أن يسي الانسان الى فهم طبيعته وإدراك حقيقة نفسه بنفسه ، وما ذلك إلا بالخضوع لكل الدوافع المتنوعة مهما كانت ، والتذرع بالشجاعة لتحقيق كل ما يجيش فيه من الرغبات دون اختيار ، أي دون أن يقول الانسان لنفسه : هذا متفق ومع الآداب العامة ، وهذا مغاير لها ؛ هذا يمس الدين وهذا لا يمس الخ يجب أن يكون كل منا (كطفل ضال ، لم يجد دون أن تعرف حالته المدنية ، دون أوراق قذفه المجهول ، لا يعرف له ماضياً ولا قاعدة يسير عليها ولا سنداً يمينه ، لا وطن له ولا أجداد)

يجد الكون جميعاً مسرحاً يجتليه عادياً أو . رائحاً
هانم يضرب في آفاقه
دائم الترحال موصول الجذل
ولكم شاهد إقبال الدجى حين ذابت فيه ألوان الشفق
ورأى الليل إذا الليل سجا وانجلي البدر وضياءً أبلجا
تقبس الأخطا من روثه
قبل أن يدركه موجُ الفسق
كم رأى الراعي الحقول النضرة حفلت بالحسن في عيد الربيع
ورأى الصيف يُعقّي أثره يسد عاتية مقتدره
تركت جنته خاوية
جف فيها الزهر والروض المريع
ولكم أبهج صفو الخريف ورأى سحر مجاليه الوضاء
واغتدى يرتع في ظل وريف قد سرى في جوه نفع لطيف
يملا الصدر به مستروحا
قبل أن تعصف أنواء الشتاء
يا قنوعاً مثلت عيشته عيشة الانسان في فجر الوجود
يا خليلاً أنسه وحدته إيه يا من برئت فطرته
من غرور العيش في زخرفه
يا طليقاً ما درى معنى القيود
يا قريير العين في خلوته لم يجرب مرة غدر الصديق
يا نقي القلب في عزلته لم ير العالم في زحمة
هات من لحنك ما يطربني
يا غريباً أنت بالبشر خليق
يا رضى النفس في إيمانه نعتت نفسك في ظل رضاها
إيه يا من قرّ في وجدانه من هدى الله ومن رضوانه
ما ترنمت به في غبطة
فطن القلب إليها قوعاها
هات من لحنك ياراعى القطيع قد نقي لحنك عن قلبى الحزن
هيه إني ما تغنيت سميع وسامضى شاكرآ هذا الصنيع
ذاكرآ لحنك مفتوناً به
إن في ذكراه رَوْحاً وسكن

محمد الخفيف

وهو الكتاب الذي ينفجر فيه بالدعوة إلى التمتع بالحياة الحسية يقول : (إنك حينما تذهب لا تستطيع أن تقابل إلا الله) وأيضاً (ناثانايل : لا تأمل أن تجد الله إلا في كل مكان) وفي كتابه الأغذية الأرضية الجديدة Les Nouvelles Nourritures terrestres يقول : (يجب أن تفكر في الله بأقصى ما يمكن من الانتباه واليقظة إنني عندما أهجر التفكير في الخالق إلى التفكير في المخلوق تنقطع صلة نفسي بالحياة الخالدة وتفقد حيائها لمملكة الله)

والآن ، أليس من التناقض مع فكرة (التحرر الأخلاقي) والدعوة إلى التمتع بالحياة أن يصر جيد لإحساس أشد المتدينين إيماناً يفكر في الله كل يوم - كما يقول - ولا يستطيع له فراقاً ؟ إن جيد يبرر موقفه بفلسفة هي أهم نواحي التجديد في تفكيره . إنه يفصل بين اللذة plaisir والحب amour ، أو بمباراة أخرى بين الجسد corps والنفس ame ، لذا زاهد يبيع من جهة تحقيق كل مقتضيات الجسد ، ومن جهة أخرى تحقيق كل مقتضيات النفس في الاتجاه إلى قوة عليا . ولا شك أن رأى جيد هذا لا يتفق مع عقيدة دينية ، ولكنه في صميمه ونحى طابعه الديني الذي لم يستطع التخلص منه فأراد التوفيق بين إحساسه الديني ومذهبه الفكري في التحرر الأخلاقي وفي العبارة الآتية يعترف لنا جيد أن هذه الناحية من تفكيره كانت خلاصاً وتبريراً لما أوقفته فيه مشكلته النفسية . يقول : (أما فيما يتعلق بي فقد قلت مراراً كيف أن الظروف وما تتجه إليه طبيعتي كانت تدعوني إلى التفرقة بين الحب واللذة لدرجة أنه كانت تؤلني فكرة الزج بينهما) ثم يقول لقد فصلت أنا أيضاً بين اللذة والحب ، بل إن هذا الفصل بين الاثنين قد ظهر لي أنه كان لازماً . فاللذة أكثر نقاء plus pur والحب أعظم كلاً (plus parfait)

يرى جيد أن انطلاقنا وخضوعنا لمطالب أجسادنا إنما هو نوع من السذاجة والبراءة innocence ، وأن إجابة الإنسان لنداء طبيعته وغرائزه التي ولدت معه إنما هو خضوع لإرادة الله . وما الفرق عنده بين من يجارى ميوله وشهوته كلها وبين من

إن هذه هي الوسيلة الوحيدة عند جيد لانكشاف حقيقة نفوسنا أمام أعيننا ، وعندئذ نسير على هدى طبيعتنا وفي قصته مزيفو النقود Les faux-monnayeurs (١٩٢٥) ترى الفتى (برنار) يخاطب القصص (ادوار) ويسأله النصيح كيف يضع قاعدة لحياته ، فيجيبه ادوار قائلاً : (إن هذه القاعدة تجدها في نفسك على أن يكون قصدك السير إلى التقدم . ليس عندي ما أقوله لك . إنك لا تستطيع أن تستمد هذه النصيحة إلا من نفسك . فلا تحاول أن تتعلم كيف تعيش إلا بأن تعيش)

ولكي نعيش - في نظر جيد - عبثة لا يقيدنا قيد يجب ألا نتردد عند الحاجة في الثورة على نظام الأسرة والجري وراء إحساساتنا تقودنا إلى حيث الحقيقة المظلمة . فالاستقرار هو ألد أعداء جيد ، لأن رائده هو أن نكون متأهبين دائماً لتغيير جديد في حالتنا

وفي كتابه الأغذية الأرضية Les Nourritures terrestres نسجع جيد يخاطب (ناثانايل) Nathanaël ملقياً عليه تلميحاً قائلاً :

(ناثانايل : إياك أن تستقر في مكان ، فبمجرد أن تغيرت ظروف هذا المكان وأصبحت موافقة لطبيعتك ، أو جملة أنت نفسك موافقاً لظروف المكان ، عندئذ لا تبقى لك فائدة رُجى من وجودك ، فيجب أن تهجره ، ليس هناك أخطر عليك من أسرتك ، من غرفتك ، من ماضيك)

وفي قصة L'Immoraliste (مينالك) Ménalque يقول : (إنني لا أريد أن أتذكر . فاعتقادي أن هذا منع لوصول المستقبل . واعتداه على الماضي الذي لم يعد لي فيه حق ، إنني بتسائي الكامل للأمس أجدد كل ساعة من حياتي . إن كوني كنت سعيداً لا يكفيني ، لأنني لا أؤمن بالأشياء الميتة . وما كنت عليه وزال عني الآن هو عندي كأنه لم يكن)

على أن فكرة جيد عن التحرر المطلق كما رأينا لم تقض على عاطفته الدينية . بل لقد أحدث عنده هذا الإيمان القوي بالتحرر وبلاستسلام لكل إحساس يغمرنا ، نتيجة عكسية ، إذ جعل جيد يترك العنان لإحساسه الديني يطفئ عليه بين وقت وآخر دون أن يحاول كبته ، فزاهد يتكلم عن الله والحياة الخالدة بأسلوب متصوف زاهد ، ففي كتابه الأغذية الأرضية Les Nourritures terrestres

يكبح بمضها إلا كالفرق بين (من يأكل كل شيء ومن لا يأكل
غير الخضروات)

ويقول جيد أيضاً: (ليس في الانسان شيء غير طاهر)
Rien n'est impur en soi ، لذا كان ما تفيض به طبيعة الانسان
من ميول وشهوات لا يجب في نظره أن يحمل غير معنى الطهر
والنقاء والاخلاص لأنفسنا فيجب أن نطعمها دون اختيار (لأن
كل اختيار إنما هو تحديد لحرقتنا)

على أن جيد يشترط لكل عاطفة تحركنا أن تكون غلصة
لكي نطعمها ونجيب نداءها . في Si le grain ne meurt نسمة
يقول : (إن لذاتي لا تحجب وراءها فكرة خفية . لذا لا ينبغي
أن يتبع هذه الذات أى شعور بالندم) فهو يقصد بذلك أن
يقول إن فكرة الحرية والانطلاق إذا استترت وراءها نية أو
غرض معين خرجت عن دائرة البراءة والأخلاص

وفي ضوء ما ذكرنا نرى أن فكرة أندريه جيد فكرة
مزدهوجة مضمونها :

أولاً : الناحية الجسدية الحيوانية في الانسان وهى الناحية
البريئة الساذجة

ثانياً : الناحية المعنوية ، وهى إما الناحية الخاصة بالاحساس
الدينى ، وإما الناحية الشيطانية في الانسان

ففكرة جيد هى الفصل بين هاتين الناحيتين اللتين هما في
الواقع حقيقتان من حقائق الطبيعة الانسانية — الناحية الجسدية
والناحية المعنوية — ثم السمو بهما الى أقصى ما يمكن من الطهر
والنقاء . وما السبيل الى ذلك إلا بنبذ كل ما لا أساس له من
الحق والصدق ، وفي مقدمة ذلك بالطبع كل ما يرغمنا عليه المجتمع .
ولقد استخدم جيد في البداية عبقريته كمنافذ في تبرير حقه
في الانطلاق والتمتع بالحياة وفي (الحب الذى لا يجرؤ أن
يقول اسمه) على أنه فيما بعد صرف همه الى العناية الشاملة بكل
تقاليد المجتمع وحقائقه الفارغة وأوهامه لكي يعمد بعد ذلك الى
تنقيحها أو هدمها من أساسها ، فقرأ مثلاً يهاجم فكرة الحماية الأدبية
ويعلن في نظم التربية ويفضح مظاهر الرياء بين الطبقات الوسطى

الى غير ذلك بما يراه من المفاصد الاجتماعية التي تقف حائلاً بين
الانسان وبين حريته التامة .

ولقد كانت (فردية) أندريه جيد سبباً في أن يبقى حتى
الثامنة والحسين من عمره بعيداً كل البعد عن الاهتمام بالصلحة
العامة أو الايمان بمقيدة سياسية أو اجتماعية على اعتبار أن
الأصفاء لأفكار الغير يحد أو يغير من أفكار الانسان الخاصة التي
يجب أن تكون بعيدة عن كل تأثير خارجي . وأندريه جيد في
عزله السياسية والاجتماعية كان يخالف تماماً كثيراً من أعظم
الكتاب الفرنسيين المعاصرين مثل أناتول فرانس وشارل موراس
وموريس باريس وشارل بييجوى ورومان رولان وغيرهم .

على أن جيد بعد رحلته الى الكونغو وأواسط أفريقيا خرج
مرة واحدة من دائرته الخاصة الى دائرة المجتمع الانساني بأجمعه .
يفكر في ظروف الحياة فيه بعين تقيض بالرحمة الواسعة والحنان
العظيم حتى أن المرء ليحس بأنه قد نسى نفسه ولم يعد يفكر الا
في الآخرين !

وفي كتابيه Voyage au Congo و Retour du Tchad نرى
جيد يدافع عن الأمم المستعمرة لا بمهاجمة فكرة الاستعمار نفسها
ولكن بالطالبة بحق إظهار هذه الأمم في التقدم المطرد في جميع شئون
حياتهم وبتشفيه كل استعمار ينتهك حرمة هذه الحقوق المقدسة

ولكن هل بقي جيد عند هذا الحد من الاعتدال في تفكيره
السياسي وهو الذى من دأبه السير إلى أقصى حدود التطرف ؟ لا .
إذ لم يكده ينقضى وقت يسير حتى رأينا جيد يرتقى في أحضان
الشيوعية التي اعترف بأنه عند اعتناقها كان يجهل صميم نظرياتها ،
ولا شك أن اعتناق جيد للشيوعية مخالفة تامة لأسس تفكيره
السابق ، لأن جيد (الفردية) قد أصبح يؤمن بنظام يقيد مصلحة الفرد
في سبيل مصلحة المجموع . وجيد التائر على أى نظام من نظم التربية
على اعتبار أن التربية تقييد وتحديد قد أصبح يؤمن بالمثل العليا
الشيوعية . وجيد الذى كان ألد عدو للمقيدة الثابتة dogme قد
أصبح إيمانه بالشيوعية تسليم منه بالنظريات الماركسية كنظرية
(التفسير الاقتصادي للتاريخ) مثلاً وغيرها . على أن في

عليها ضوءاً وهاجا نستمد من صميم إرادتنا وشجاعتنا ، علمنا
كيف نصرح بكل ما يجيش في خفايا قلوبنا من النزعات
الصارخة - علمنا كيف ومتى نعرف تماماً حقيقة نفوسنا
ليس بالاستسلام لفرائض الحيوانية كما يتهمه أعداؤه ظلماً ، بل
بأن تسير طبيعتنا مهما كانت بسذاجة عظيمة ، سواء ما كان منها
خاصاً بالناحية الحيوية أو بالناحية الروحية ، وأن نكون دائماً
على أتم أهبة لمواجهة الحياة المثيرة ومجاراتها على الدوام في
قلب جديد

المصادر

- 1) René Schwob : Le vrai drame d' André Gide (1932)
- 2) André Billy : La littérature française contemporaine (1929)
- 3) René Lalou : Histoire de la littérature française cont-
emporaine (1931)
- 4) René Groos et Gonzague Truc : Tableaux du XX ème
siècle (1900 — 1933) Les Lettres (1934)
- 5) Benjamin Crémieux : André Gide (étude) Nov. 1934

الشيوعية أيضاً تتحقق معظم أفكار جيد وآماله ، ففيها شرود
نهائي من ماضيه الديني الذي أنقله زماناً طويلاً ، وفيها التخلص
من عبودية نظام الأسرة الذي طالما حارب وناضل في سبيل القضاء
عليه ، وفيها أمل جديد في الوصول الى ما يسميه جيد (مملكة
الله) أي قتل الجوانب الخبيثة في الانسان بالتخلص من كل أنانية
والتحرر من كل تفكير ذاتي ، وهو يرى فيها أيضاً الشفقة الزائدة
والتفكير الجدي في محو الشقاء الانساني

ولعل من العجيب أن اندريه جيد منذ أعلن إيمانه بالشيوعية
لم يعمل أي عمل أدبي جديد ، مقتصرًا على نشر المقالات
المختلفة التي تدور كلها تقريباً حول تبرير انقلابه الجديد ، ولا نقول
الأخير ، فهل منا من يضمن أن جيد يستقر على حال ؟ !

لعل مظاهر التقلب والقلق الدائم وعدم الاستقرار التي

صاحبت جيد عشرات السنين هي أعظم ما يرفعه
(كإنسان) لأنها نتيجة تغفل عاطفة الحرية في
دمه الى حد قل أن يكون له نظير ، فظل طول
حياته (حديقة من التردد) - كما يسميه أكبر
أتباعه الكاتب الفرنسي جاك ريفير - لا يهدأ
له بال . يدرس الحياة بنواحيها الفكرية والحسية ،
يسافر الى أقصى البلاد . كل ذلك لكي يصل
الى الحقيقة المنشودة التي يسمي وراها . ورغم
عبء ماضيه الديني الثقيل فقد استطاع أن
يحطم أغلاله لينطلق باحثاً منقياً

إننا حين نحكم على اندريه جيد يجب أن
ننظر الى مجموع شخصيته ، متغاضين عن تلك
السبل الشاردة التي اختطها في حياته الخاصة
ودعوته العامة ، ونعتبر في نظر ناقدية - مبالغة
قصوى في تفسير معنى الحرية - لقد علمنا جيد
كيف تنتصر على الحجل المقيت والرغبة البغيضة
التي لا معنى لها ، علمنا كيف نكشف دخائل
نفوسنا ولا نتركها في الظلام الدامس لا نعرف
كنها كأن ليس لنا بها صلة ، علمنا كيف تسلط

الحج فريضة على كل مسلم ومسلمة شركة مصر للملاحة البحرية

مهدت السبيل اليه

بباخريتها

«زمر» و«الكوثر»

قوموا لحج بيت الله

يغفر لكم ما تقدم وما تأخر

الاستعلام من إدارة الشركة بمهارة بنك مصر القاهرة